# (البحوث)

## الصمود لا النكوص

د. عبد السلام العجيلي

مثلما يكون القدر مكتوباً للأفراد، يكتب كذلك للبلاد وللشعوب والأمم. ويبدو أن قدر شعبنا في وطننا، في سورية العربية، هو الصمود.

لن أتحدث عن صمودنا في الميدان السياسي، فهذا المنبر ليس مكانه. الحديث عن ذلك الصمود تمتلئ به المجالس والصحف والإذاعات المسموعة والمرئية، والشواهد عليه قائمة في الماضي والحاضر. ما أريد أن أخصه بكلامي هو الصمود في المجال الذي تنعقد له ندوتنا. مجال اللغة العربية والإعلام، أو مجال اللغة العربية في الإعلام.

لو أردت أن أحابي نفسي بمحاباة هذه المؤسسة التي نعقد ندوتنا في رحابها لقلت إن مجمعنا، مجمع اللغة العربية في دمشق، هو الذي بدأ قصة صمود اللغة العربية أمام حملات المبغضين والمشككين وأمام عوامل التخلف ونكبات الاحتلال الأجنبي، منذ ما أنشئ باسم المجمع العلمي العربي وتألفت كمقدمة لإنشائه شعبة الترجمة والتأليف في ٢٨ تشرين الثاني عام ١٩١٨،



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في أول عهد الحكومة الفيصلية العربية.

لو أنني قلت هذا لما بعدت عن الحقيقة كثيراً. ولكني أكون في الوقت نفسه غمطت حق الأفذاذ من أبناء بلاد الشام، قبل أن تتجزأ هذه البلاد إلى لبنان وفلسطين وسورية، أفذاذ تنبهوا إلى قيمة لغتهم في معرفة ماضي أمتهم وفي بناء حاضرها، كما تنبهوا إلى ما نحتت به عهود التخلف والسيطرة الأجنبية على بلاد العرب من أثلة هذه اللغة، مضعفة مقاومتها ومهددة إياها بالانكماش والتقوقع. لقد عمد أولئك الأفذاذ، عند تنبههم إلى كل ذلك، إلى تأليف المعاجم وتحقيق الكتب التراثية واستنباط المفردات التي تحتاجها الحضارة المتجددة، في جهود قيّمة لا يزال أثرها باقياً إلى يومنا هذا.

تلك الجهود قامت في أغلبيتها في أواخر القرن الفائت ومطلع قرننا الحالي، وكانت على عظم مردودها جهوداً فردية ومبعثرة. وجاءت نهاية العقد الثاني من هذا القرن فشهدت توحد الجهود المبعثرة وانتظامها، وصيرورتها رسمية، في ظل الدولة العربية الناشئة. تم ذلك حين صدر الأمر بأن يستقلّ المجمع في تكوينه، وبأن يتابع المهمة التي أوكلت إليه والتي وصفت بأنها: تدبّر أمر اللغة العربية الرسمية، ونشر الثقافة بين الموظفين، واستبدال المصطلحات العربية بالتركية... التركية التي كانت لأعوام طويلة، بل لمئات عديدة من السنين، لغة الدولة ودواوينها ومصالحها.

العمل لهذه المهمة كان نهوضاً وصموداً في آن واحد. وأن يقوم المجمع العلمي العربي، كما كان يسمى آنذاك، وهو هيئة رسمية من هيئات الدولة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفتية بهذا العمل، يعني أن الدولة اتخذت قرارها بحماية اللغة وتقويتها وجعلت نفسها مسؤولة عن تنفيذه. وقد أثمر القرار ثماره الطيبة حين ترسّخ استعمال اللغة العربية السليمة في الدوائر الحكومية، وفي التعليم، وحتى في تدريس العلوم الحقيقية. إذ أصبح الطب والعلوم المرتبط بها تدرّس في الجامعة السورية المنشأة حديثاً بلغة الضاد، وهو ما تهيبته وتحامته و لم تقدم على مباشرته كليات الطب الثلاث الموجودة آنذاك في البلاد العربية، واحدة في القاهرة واثنتان في بيروت. كما ترسخت اللغة السليمة في مجالات ما أصبح اليوم يسمى إعلاماً، الرسمي منه والخاص.

لم يكن الإعلام في العشرينيات والعقود الأولى التي تلتها من هذا القرن على هذا الاتساع الذي هو عليه اليوم. كان بصورته المكتوبة محصوراً في الدوريات من مجلات وصحف يومية. وبصورته الشفهية كان متمثلاً بخطباء الجوامع والوعاظ في الكنائس، وفي المتكلمين في الاجتماعات العامة من سياسية وثقافية. اللغة السليمة كانت هي لغة التعبير المستعملة والتي يصر عليها المتكلم والقارئ والمستمع في كل هذه المجالات. الخطأ اللغوي في الكتابة وفي الخطابة كان عيباً ينقص من قدر الكاتب والمتكلم ويضعف تأثير ما يقوله في نفوس من يتوجه إليهم بأقواله.

هكذا كان الإعلام بصورته المبسطة قبل أن تدخل الإذاعات المسموعة ميدانه ثم تسيطر بعد ذلك الإذاعات المرئية المسموعة عليه. الإذاعات الأجنبية نفسها، وهي التي تولت البث في البدايات، وجدت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نفسها محكومة بمجاراة عقلية المستمعين العرب في أقطارهم المتباعدة وباتباع هوى نفوسهم، فكان الكلام فيها في مختلف جوانبه بالعربية الفصيحة والسليمة. جندت تلك الإذاعات أفصح المذيعين لغة لبرامجها، وأنشأت مدارس متخصصة للعاملين فيها لهذه الغاية. والقسم العربي في الإذاعة البريطانية مثال لهذا الذي قلته، بدأت به واستمرت به ولا تزال تعمل به.

أما عن الإعلام العربي في وطنه، أعني في العالم العربي ذاته، فقد كان طبيعياً أن تلتزم الإذاعات المسموعة منذ نشوئها باللغة الفصيحة والسليمة فيما ينطق المتحدثون فيها، مثل التزام الدوريات التي راحت تتكاثر بتتالي الأيام. سوّغ ذلك وشجّع عليه أن أجيال المواطنين المتعلمين تلقوا في معاهد دراستهم منذ الصغر تعليماً يجعل من سلامة اللغة حجراً أساسياً لكل المعارف التي تزودهم بها تلك المعاهد. استمر الأمر كذلك عقوداً متتابعة من السنين تجاوزت منتصف هذا القرن السائر إلى الانتهاء. وسورية، بتشددها في التمسك بعروبتها، كانت مثل غيرها وأكثر من غيرها حرصاً على أن تكون إذاعتها سائرة في الطريق التي رسمته دولتها العربية الأولى، في الحفاظ على العربية وحمايتها من الهجنة وصمودها أمام دعوات الداعين إلى إضعافها.

استمر هذا كما قلت، وعندنا أكثر مما عند غيرنا من أشقائنا في سائر البلاد العربية، عقوداً من السنين لم تلبث أن أعقبتها عقود أخرى بدأ الضعف يتسرب فيها إلى صمودنا في ميدان صيانة اللغة. لعل البلاء جاءنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أول ما جاء من لغة التمثيل السينمائي، ومن السينما المصرية، التي اجتذبت الجماهير العربية في كل مكان، خاصة. كان المسرح المصري المشتهر والمتميز يقدم أكثر رواياته باللغة الفصيحة المفهومة والمؤثرة. أما السينما فقد ألقت اللغة الفصيحة وراء ظهرها وأشاعت العامية المصرية في حوارات أفلامها في الأول، ثم عاميات الأقاليم العربية الأخرى في أفلام تلك الأقاليم.

على أن السينما ليست وسيلة إعلام مباشرة على كل حال. موجات تضعضع اللغة في الإعلام تظاهرت بداياتها في الإذاعات المسموعة أولاً، وبصورة محدودة، ثم امتدت بصورة أوسع إلى التلفزة بمشاهدها الجذابة وبرامجها المشوقة وقدرتها على شد المشاهد والتأثير عليه، وأكاد أقول قدرتها على غسل دماغه.

وهنا يأتي مكان القول إن الإعلام بدورياته المطبوعة وبإذاعاته من مسموعة ومرئية تخضع لإشراف الدولة في كل البلاد العربية، كما إن وسائله ملك خالص للدولة في كثير من هذه البلاد. بلدنا سورية مثال لهذا التملك ولذلك الإشراف. فإذا كان الضعف في حماية اللغة في أي بلد عربي يعد تهاوناً فإنه في سورية العربية جدير بأن يسمى نكوصاً. إنه نكوص عن القرار الذي اتخذته الدولة العربية الأولى في هذا القطر حين جعلت سلامة لغته مسؤوليتها الذاتية.

أخذ النكوص إذن مكان الصمود في هذا المجال الذي تعهدت دولتنا بحمل عبئه وحملته بكفاءة ونجاح عشرات السنين. فما الذي جعل النكوص

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في مجال اللغة الفصيحة واقعاً في إعلامنا، وأكاد أن أقول واقعاً مبرراً في بعض الأحيان؟.

إن استخدام العامية في قطاع الإعلانات المكتوبة على اللافتات وفي إعلانات التلفزيون المصورة والناطقة، عن المنتجات التجارية بصورة خاصة، ظاهرة عامة ومتزايدة. المسؤول عن الموافقة على عرض هذه الإعلانات، في بلدنا، مؤسسة رسمية تتبع الدولة. بل إن هذه المؤسسة نفسها، في إعلاناتها عن نشاطاتها الخاصة تلجأ في بعض الأحيان إلى استخدام عامية بمفردات ممجوجة تكتبها على لافتاتها المعلقة في كل مكان. قبول المؤسسة المسؤولة هذه بتوسع تلك الظاهرة عملية تفتيت للصمود الذي اتخذته الدولة مبدأ لها. وكذلك فالمسؤول عن شيوع الحديث باللغة العامية في العديد من برامج الإذاعة، وعن أخطاء اللغة في الأحاديث المعدة باللغة الفصيحة، هي دوائر رسمية أنشئت لمراقبة الخطأ وتصويبه وتنبيه من يرتكبه حتى لا يكرره. تهاون هذه الدوائر في أداء مهمتها هو عملية تفتيت لهذا الصمود أيضاً. إنها مسؤوليات جدّية لمؤسسات تتبع الدولة، فإذا لم تحسن القيام بها وجب أن تحاسب على تهاونها وإهمالها فيها.

تلقّى الحجاج من عامل له على إحدى الكور رسالة أخطأ فيها كاتبها في اللغة خطأ قبيحاً، فأعاد الحجاج الرسالة إلى عامله وعليها حاشية يقول له فيها: اضرب كاتبك عشرين سوطاً، واصرفه عن عمله!.

ليس من المعقول في هذه الأيام أن نطلب من القائمين على كور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدولة، أعني من وزرائها، أن يجلدوا كتابهم، أعني رؤساء الدوائر المتهاونين بلغة أمتهم، بالسوط وأن يصرفوهم عن عملهم، أعني أن يسرّحوهم من وظائفهم. كل ما نريده من القائمين على المؤسسة السورية للإعلان، وعلى دوائر الرقابة في الإذاعة والتلفزيون، أن لا ينكصوا عما اتخذته سورية العربية مبدأً لها في الصمود في مجال حماية اللغة الفصيحة وتقويتها والاقتصار عليها في القراءة والكتابة والأحاديث الرسمية.

ذكرت أن هناك من يجد لواقع النكوص عن صمودنا الذي نتحدث عنه مبرراته. هؤلاء يتسترون وراء كلمة أن الجمهور يريد هذا. يقولون إن اللغة العامية والألفاظ السوقية تجذب المشتري إلى البضاعة التي يعلنون عنها فتنفق البضاعة ويزداد ربحهم. تلك، كما يقول المتنبي، حجة لاجئ إليها اللئام... أعني قصار النظر وقليلي المعرفة وضعيفي الإيمان. ومع ذلك فإننا قد لا نلوم هؤلاء في بحثهم عن المكاسب بالوسيلة التي تناسبهم. نحن نلوم ونؤاخذ من يتيحون لهم الربح عن طريق الإساءة إلى لغتنا والنحت في أثلة صمودنا.

يروون عن أبي عمرو بن العلاء أنه مرّ بدكان على بابه قيود وفوقها كتابة تقول: هذه القيود «لأبو» فلان، فهز الرجل الكبير، اللغوي والمحدث وصاحب إحدى القراءات السبع، رأسه وقال: يا سبحان الله... يلحنون ويُرزقون! فكأن أبا عمرو رحمه الله كان يرى كثيراً على من يلحن في كلامه وكتابته أن يرزق.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ترى ما يقول أبو عمرو لو أنه عاش اليوم ورأى بعض من بيدهم الأمر يسمحون لطوائف من الناس بأن يزيدوا من رزقهم عن طريق اللحن في اللغة، بل عن طريق هجر اللغة الفصيحة إلى لغة هجينة، وإلى كلام سقيم يطعن صمودنا المبدئي في الصميم؟!.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net